

د. مراد غالب

الباحث عن الحقيقة !!

* همس سيمينوف فى أذنى «سيضربونكم» قبل عدوان ١٩٦٧ بشهر كامل!

* بعد إغلاق تيران كانت موسكو بادية الانزعاج وأبلغتنا بضرورة تفويت فرصة لجوء إسرائيل لحل عسكرى!

* شمس بدران نقل إلى القاهرة انطباعاً غير دقيق عن زيارته لموسكو قبل العدوان مستغلاً كلمة مجاملة من الماريشال جريتشكو!

* فى ٦ يونيو جاءتنى من مصر طلبات يتحيل على السوفيت تنفيذها مثل اشتراك طيارين روس فى المعارك!

* قال جريتشكو: «لو أطلقت كل دبابة مصرية طلقة واحدة لتغيرت نتيجة حرب ١٩٦٧»!

* اكتشف المواطنون السوفيت أن الكثير من نجوم المجتمع يهود بعد ما حشدهم الحزب الشيوعى فى اجتماع لمحاولة احتواء الحملة ضد العلاقات العربية - السوفيتية.

* كان جروميكو يعطى الحل السياسى أولوية أولى بينما كان جريتشكو ميالاً للثأر لكرامة العسكرية السوفيتية!

* أكد الفريق محمد فوزى أن مصر وسورية كانتا متفوقتين عسكرياً فى عام ١٩٧١!

* أرادت إسرائيل بسرقة الرادار المصرى وضرب نجع حمادى أن توجه رسالة سيكولوجية إلى موسكو!

- * فى زيارته السرية إلى موسكو قال عبد الناصر: «سأستقيل إذا لم تجب مطالب التمليح. فليس عبد الناصر الذى يقبل التفاوض مع إسرائيل»!
- * تغيرت لهجة السادات مع السوفييت من النقيض إلى النقيض بمجرد أن أصبح رئيساً للجمهورية.
- * فوجئ السادات وغضب حين طلب بادرورنى عقد المعاهدة مع مصر فقلت له: «ياريس هذا امتحان».
- * قال لى أحد أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى: «لماذا حدد السادات ٧ يوليو ١٩٧٢ موعداً لطرد الخبراء.. أهو عيد قومى فى مصر؟».
- * بعد قرار طرد الخبراء استقبلنا بريجنيف فى الكرملين والدموع فى عينيه وقال: «ماذا فعلنا بكم حتى تتسببوا لنا فى كل هذا.. لقد كنا نخفى موتانا على الجبهة فى مصر عن أعين الشعب الروسى حتى نتمر فى أداء دورنا تجاهكم»!
- * عندما طرد السادات الخبراء، قال لى الفريق صادق: «الدور على»!
- * وافق السوفييت قبل طرد الخبراء بثلاثة اشهر على منح مصر سلاحاً للردع هو صواريخ «سكود»!
- * أعطى رئيس الأركان السوفييتى للسادات صور الاستعداد الإسرائيلى للثغرة قبل حدوثها!
- * قال لى بعض المسئولين الأمريكين: «كيف أحست بمجرد أن عينك السادات وزيراً للخارجية أنه ينوى إنهاء العلاقة مع السوفييت»؟!.

(يناير ١٩٩٢)

فى الثامنة من صباح السادس من يونيو ١٩٦٧، كان الدكتور مراد غالب سفير الجمهورية العربية المتحدة فى موسكو، يخطو - فى عجلة - عبر البهو المؤدى إلى الباب الخارجى لمبنى السفارة المصرية العميق القابع فى شارع «الجرتسينا»، المسمى باسم أحد كبار الكتاب السوفيت.

أمام الدرج توقفت سيارة داكنة سوفيتية الصنع من طراز «شاىكا» وهو النوع الذى أصبحت السفارة المصرية تستخدمه، بعد العربات (الزيم) وهى سوفيتية أيضاً، ثم العربات الأميركية (شيفروليه)، وأخيراً (شاىكا) السوفياتية واسمها يعنى (سيجال).

دخل الدكتور مراد إلى السيارة التى يرفرف على مقدمتها علم الجمهورية العربية المتحدة بألوانه الثلاثة الأحمر والأبيض والأسود، وتتوسطه نجمتان ترمزان إلى الوحدة المصرية - السورية التى كانت.

ارتسمت علامات القلق والهم العميق على وجه الدكتور مراد، وسرح ينظر عبر زجاج نافذة السيارة وكأنه لا يعرف موسكو، العاصمة التى أمضى فيها أربعة عشر عاماً، دبلوماسياً يمثل بلاده فى أهم الحواضر العالمية التى تتعامل معها.

لم يلتفت مراد غالب إلى منظر النسوة العجائز، اللاتى يقمن بأعمال النظافة فى شوارع العاصمة السوفيتية، ولا منظر البرائم الجديدة وهى تشق طريقها للحياة بإصرار فوق أفرع أشجار المدينة - كعادتها - فى يونيو من كل عام، ولم يلحظ الجندى الذى أفسح الطريق بحزم للسيارة الدبلوماسية وقد ارتسم على وجهه تعبير جليدى لاهياة فيه.

مرت الدقائق الأربع التى استغرقتها سيارة «الشايكا» فى قطع الطريق بين مبنى السفارة المصرية ومبنى الكرملين العتيد -الكائن على بعد كيلو مترين- على الدكتور مراد وكأنها أربعة أعوام، كانت صور كثيرة تتراءى وتتابع فى مخيلته عن أحداث الأسبوعين السابقين.

كلمة سيمينوف نائب وزير الخارجية السوفييتى التى أسر بها فى أذن الدكتور
غالب قبل شهر كانت تطن فى رأسه كمنحلة لا تهدأ ولا تعتزم الرحيل :
«سيضربونكم.. الاحتكارات النفطية العالمية غير راضية عن سلوككم فى
المنطقة.. سيضربونكم»!!

عبرت السيارة أمام المبنى التاريخى للكرملين بينما كانت الشمس تعكس
أشعتها بحدة على قبابه المذهبة.. وتوقفت الشايكا أمام درج يؤدى إلى مبنى
إدارى مهيب.

وفى دقيقتين كان أحد الموظفين يفتح باباً كبيراً من خشب الجوز ليجد الدكتور
غالب نفسه أمام أليكسى كاسيجن رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى، الذى قابله
بوجه ممتنع تختلط فى ملامحه مشاعر الغضب والحزن.. وبصوت واهن تتمم:
«دكتور غالب.. لقد سقطت العريش صباح اليوم»!

.....

ولتبدأ حوارنا من البداية..

د. عمرو عبد السميع: مازالت هناك فصول غير واضحة فى قصة العلاقات المصرية - السوفياتية.. وبالذات الفصل الخاص بالدور السوفيتى بعد حرب ١٩٦٧، وذلك المتعلق - أيضاً - بالخلافات بين السادات وموسكو؟
الدكتور غالب.. هل آن الأوان لتروى لنا بعض ما تعرفه عن هذين الفصلين؟

د. مراد غالب: قبل ٦٧، شهدت حركة تحرير الشعوب انحساراً كبيراً وبالذات فى عامى ٦٥ و١٩٦٦، واختفى من فوق خشية المسرح السياسى زعماء هم نجوم ورموز هذه الحركة مثل كوامى نكروما فى غانا واحمد بن بلله، فى الجزائر وأحمد سوكارنو فى أندونيسيا.

أما عن مصر فكانت علاقاتها مع الولايات المتحدة الأميركية قد بدأت فى التدهور منذ ١٩٦٥، وبدا الرئيس ليندون جونسون، وكأنه قد عقد العزم على المضى بهذا التدهور إلى نهايته.

عند هذه النقطة (المفصل) كان الهجوم قد بدأ على حركة تحرير الشعوب وبالتالى على الوجود السوفيتى فى العالم الثالث، وأضيف إلى هذا تصاعد القصف فى فيتنام وحصار الصين إلى حد كبير.

ووسط هذه الظروف شهدت دمشق تغييراً سياسياً مهماً، وصفه المراقبون بأنه جنوح إلى اليسار، وتولت الحكم ترويكما سورية بزعامة نور الدين الأتاسى.

وبعيداً.. بعيداً عن الشاطئ المظل على الأطلنطى، كان هناك فى الولايات المتحدة من يفكرون -بدأب- لضرب نوعية الأنظمة التى أصبحت موجودة فى

الشرق الأوسط، مثل النظام المصرى والنظام السورى، كجزء من تصفية حركة تحرير الشعوب وضرب النفوذ السوفييتى فى المنطقة.

وسار السيناريو الأمريكى فى طريقه المرسوم.. قطع المعونات عن مصر، ثم شروط أربعة قدموها بواسطة سفيرهم فى القاهرة إلى الرئيس عبد الناصر، وأعادوا تقديمها بواسطة مبعوثين كثيرين.. وتشمل الشروط الأربعة:

١- أن تقب مصر داخل حدودها وتكف عن التحرك باسم القومية العربية.

٢- تحديد حجم وتسليح القوات المسلحة المصرية.

٣- حق التفتيش على المنشآت الذرية المصرية.

٤- الصلح مع إسرائيل.

وتتابعت الأحداث، لتبدأ بتحرش إسرائيل تجاه سورية، ثم معركة إسقاط الطائرات الشهيرة فوق سورية، وأخيراً الحشود الإسرائيلية فى مواجهة الجولان. قبل هذا كله وأثناءه كان السوفييت دائمى التحذير لنا من نوايا عربية عدوانية تجاهنا.

د. عمرو عبد السميع: هل أبلغوكم بهذا رسمياً؟

د. مراد غالب: فى مثل هذه الأمور لا يلجأ السوفييت إلى الطرق المتعارف عليها فى الإفصاح عما تعتقده قيادتهم العليا، ولكنهم يعمدون إلى تمرير الرسائل غير الرسمية.. وأذكر - قبل شهر من عدوان ١٩٦٧ - أن سيمينوف نائب وزير الخارجية السوفييتى انتحى بى جانباً فى إحدى حفلات الاستقبال فى مقر سفارة عربية فى موسكو، وهمس فى أذنى: «انتبهوا.. سيضربونكم.. الاحتكاكات النفطية العالمية غير راضية عن سلوككم فى المنطقة.. سيضربونكم».

ولفت انتباهى بعد هذه الواقعة أن سيمينوف تعمد تكرارها أمام عدد كبير من

المبعوثين المصريين، والموظفين الذين كان يلقاهاهم بكثرة، فقد كان لمصر فى موسكو مكاتب كثيرة أحدها للسد العالى، والآخر للعلاقات التجارية، ومكتب للمشتريات العسكرية، ومكتب للتصنيع، يشرف على كل المشاريع الصناعية المصرية - السوفيتية، بالإضافة إلى مكاتب الملحقين العسكريين، باختصار كان لمصر مجلس وزراء مصغر فى موسكو، وكان إبلاغ الرسائل فى كثير من الأحيان يتم بشكل غير مباشر كما فعل سيمينوف.

تتابعت - بعد ذلك - الأحداث وبدأت الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية، ثم أغلقت مصر مضائق تيران، وجاء إلى موسكو السيد شمس بدران وزير الحربية موفداً من الرئيس عبد الناصر، والتقى بكاسيجن رئيس الوزراء، والمارشال جريتشكو وزير الدفاع، وفى هذا الاجتماع أبدى السوفييت انزعاجاً شديداً من إغلاق مضائق تيران، وأخبروا بدران أن على مصر أن تحافظ على مكاسبها، وتنجح فى تفويت الفرصة للتدخل العسكرى، بأن تراجع عن خطوة إغلاق المضائق وتحريك قواتها إلى الحدود، كان كاسيجن هو الذى يوجه هذه الملاحظات - مباشرة - لشمس بدران، حتى أن المارشال جريتشكو لاحظ أن جو الزيارة كان كثيباً ربما أكثر من اللازم، وقد يكون محبطاً للمصريين، فقال لشمس بدران، وهو يقوم بتوصيله إلى باب الطائرة: «نحن معكم»، وعاد شمس إلى القاهرة ليتجاهل كل ما سمعه من كاسيجن، وينقل إلى القيادة الانطباع الهوائى الذى تركته فى ذهنه عبارة جريتشكو المجاملة عند باب الطائرة!

(يسرح طويلاً)... عموماً كانت فترة الحتين اللتين سبقتا عدوان يونيو، غريبة جداً. فى تاريخ مصر، وترك النزاع والصراع بين مؤسسة الرئاسة بقيادة عبد الناصر، والمؤسسة العسكرية بقيادة عبد الحكيم عامر، آثاراً بالغة السوء على طريقة إدارة الأزمات، وإدارة العلاقات الدولية، وحتى أثناء العدوان كادت تحدث قطيعة بين مصر والسوفيت بسبب أن القيادة العسكرية التى فقدت أعصابها، أرادت تحميل السوفييت كل مسئولية الكارثة، وعلى الرغم من ذلك جاءتنى فى السادس من يونيو فى الصباح الباكر - قبل اجتماعى بكاسيجن - قائمة طلبات

متحيلة التنفيذ يرجح أن القيادة العسكرية كانت وراءها، مثل طلب باشتراك طيارين سوفيت في المعركة، وبالطبع كانت نتيجة تقديم هذه الطلبات إلى رئيس الوزراء السوفيتي، أن استمعت إلى محاضرة طويلة عن أن دور موسكو ينحصر في مراقبة الأسطول السادس الأميركي في البحر المتوسط والتحرك إلى جواره لمنعه من التدخل في العمليات.

إلا أن كاسيجن لم تفتته المناسبة - وهو يوجه حديثه - لى - بحزن وأن يتساءل عن حقيقة الاستعدادات المصرية للحرب، وعن هذا الكلام الذى استمع إليه طوال أسبوعين من الجانب المصرى، ختاماً بما سمعه شخصياً من شمس بدران وزير الحربية، والذى يفيد أن مصر مستعدة للمواجهة، وما زالت صورة كاسيجن ترسم فى ذهنى وهو يهز رأسه مطرقاً إلى لوح البللور الذى يغطى مكتبه ويتساءل: «أى استعداد»!

د. عمرو عبد السميع: ألا ترى معى أن لهجة التوبيخ السوفيتية - هذه - بدأت مبكراً أكثر من اللازم؟

د. مراد غالب: لم يكن توبيخاً ولكنه تعبير عن تألمهم الشديد مما يجرى، كانت الهزيمة المصرية، بشكل غير مباشر هزيمة لهم.

عاصفة من التساؤلات اجتاحت موسكو بعدما انقشع الدخان، وظهرت نتيجة الحرب، وما زلت أذكر مقولة جريتشكو لى - فى التعليق على نتيجة الحرب - والتي رددت صداها أعمدة الكرملين الرخامية:

«لو أن كل دبابة مصرية أطلقت طلقة واحدة لتغيرت نتيجة الحرب»!!

لقد عانت القيادة السوفيتية من حملة انتقادات عنيفة داخل موسكو بمقدار ما عانينا نحن من انتقادات القيادة السوفيتية.

كان الجميع يتساءلون: «ما هؤلاء العرب الذين نتحالف معهم؟».

د. عمرو عبد السميع: فى مجتمع تعبوى MOBILIZED مثل الاتحاد السوفيتى لا أعتقد إلا أن مثل هذا الاتجاه كان مدفوعاً بقوة ما، هل توافق؟

د. مراد غالب: ما أرويه لك، هو ما حدث بحذافيره، الهجوم على القيادة السوفيتية بعد حرب ٦٧، كان بشعاً، حتى من داخل الحزب الشيوعي نفسه، ونشطت الدعاية الصهيونية واليهودية بشكل كبير وغير مسبوق أيضاً داخل الاتحاد السوفيتي.

حتى سائقو التاكسي كانوا يرفضون ركوب أى عربى، لأنهم يرون أن العرب كحلفاء خذلوهم خذلاناً كبيراً، وشاركوا فى تحطيم سمعة العسكرية السوفيتية.

وما كان من القيادة السوفيتية سوى أنها أنزلت الحزب بقياداتها، ووزارة الخارجية بقياداتها لجمع يهود الاتحاد السوفيتي فى مؤتمر كبير عقد فى أغسطس ١٩٦٧، لكى يشرحوا لماذا انهزم العرب؟ وما هى أسباب حرص القيادة على استمرار التحالف مع العرب؟!!

وقد أصاب هذا الاجتماع المواطنين السوفييت بالذهول، لأنهم اكتشفوا - للمرة الأولى - أن الكثير ممن يعتبرهم المجتمع السوفيتي نجوماً ورموزاً هم من اليهود، شخصيات مهمة وخطيرة، مثل «بليس كايانا» راقصة الباليه المعجزة، و«ديميشتسل» نائب رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي، ومجموعة من أكبر أطباء وكتاب وفنانى روسيا.

وفى هذا الاجتماع أطلقت التجمعات اليهودية عدداً من النظريات الغريبة، وبدا أن الاتحاد السوفيتي - من أقصاه إلى أقصاه - يعيش حالة مساجلة سياسية حول نتيجة الحرب العربية - الإسرائيلية، كان اليهود يقولون: إن المصريين لم يحاربوا أبداً، وحتى - تاريخياً - كانت انتصاراتهم العسكرية على يد المماليك، أو على يد محمد على، بينما كان الشعب المصرى متنفذاً فقط!!

ونظريات أخرى - ما أنزل الله بها من سلطان - تتردد فى جنبات هذا الاجتماع وفى اجتماعات أخرى تلتها.

هذا بينما بدأت فى مصر حملة تمثل جانباً آخر من جوانب المساجلة، وتحدث عن بلادة السلاح السوفيتي وتخلفه، وتنتقل الكرة إلى الملعب

السوفيتي فسمع من يقول: إن الفيتناميين يقاتلون بالسلح الروسى، والكوريين حاربوا بأسلحة سوفيتية، والصينيين تصدوا لجيوش الحلفاء بقيادة الجنرال ماك آرثر وأوقفوها حتى أنه فكر فى ضرب الصين بالقنابل الذرية.

ورأيت أن الأمور تتطور فى غير صالح العلاقات المصرية - السوفيتية، وبخاصة أن ليس لدينا مصدر آخر للحصول على السلاح، فكتبت مذكرة إلى رئاسة الجمهورية فى مصر أطلب فيها بوقف هذه الحملات، بينما كانت القيادة السوفيتية تحاول - من جانبها - احتواء الموقف فى موسكو لأنها تعى مصالحها الحيوية فى المنطقة، إلا أن الحركة السوفيتية ظلت محكومة بمعادلة مؤداها السعى فى كل المجالات - سياسياً وعسكرياً - بما لا يؤدى إلى مواجهة أميركية - سوفيتية.

د. عمرو عبد السميع: منذ الحرب وحتى وفاة الرئيس عبد الناصر دارت العلاقات بين مصر والسوفيت فى أطر آلية طرفها الأول مطالبات مصرية بالسلاح، وطرفها الثانى ردود سوفيتية إيجابية أو سلبية على هذه المطالبات، ما هى الفكرة التى كانت تحكم طبيعة الاستجابة السوفيتية لمصر فى هذه المرحلة؟

د. مراد غالب: كان السوفيت يكررون - وبالذات جريتشكو - أن هناك حاجة إلى وقت بين هزيمة عسكرية، ومواجهة عسكرية أخرى يتحتم الانتصار فيها.

وكانوا متخوفين من أى هزيمة أخرى، فأى هزيمة ثانية هى - بالنسبة لهم - كارثة لا يمكن تداركها.

وبالتالى أعطى السوفيت بعد ١٩٦٧ للحركة السياسية والديبلوماسية أولوية أولى، ولذلك فى كل جلسات المحادثات الرئاسية مع السوفيت، كانت الترويك الروسية (بريجتيف - بادجورنى - كاسيجن) تتمع إلى طلبات عبد الناصر على الساحة العسكرية، ثم يطالبون بأن يبدأ الكلام - أولاً - على الساحة السياسية، ويرون أنه وفقاً لتقدير الموقف على الساحة الدبلوماسية، ستكون استجابتهم للطلبات العسكرية.

وربما كان. أندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتى هو أكثر الميالين إلى الحل السياسى، بينما كان جريتشكو ميالاً إلى الحل العسكرى باعتباره يمثل ثاراً للعسكرية السوفيتية الجريحة.

على أى حال مضت عمليات تزويد العرب بالأسلحة فى شكل دعم قدراتهم الدفاعية، ثم تطوير هذه القدرات لتصبح هجومية حتى أن الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية المصرى السابق قال لى: «إن مصر وسورية أصبحتا متفوقتين من الناحية العسكرية عام ١٩٧١».

وفى هذا السياق كان الصمود المصرى المبكر فى معارك رأس العرش، ثم فى إغراق المدمرة إيلات يقابل بتقدير كبير فى موسكو، بما أشعر إسرائيل بأن هدفها بعد الحرب مباشرة ينبغى أن يكون توجيه رسالة سيكولوجية إلى الاتحاد السوفيتى هدفها إفقاد الثقة فى مصر كقوة عسكرية، ومن ثم كانت عملية سرقة الرادار المصرى من منطقة البحر الأحمر، ثم تسلل طائرة إسرائيلية إلى نجع حمادى فى صعيد مصر، وضرب قناطرها هى عمليات مدروسة تستهدف نفسية السوفيت أكثر مما تستهدف نفسية المصريين.

د. عمرو عبد السميع: أدى اختلاف زاوية الرؤية إلى ما يشبه الصدام بين عبد الناصر والسوفيت فى جلسات المحادثات ومنها زيارته الأخيرة، هل لك أن تحكى بعض فصول من هذا؟

د. مراد غالب: كانت زيارات عبد الناصر للاتحاد السوفيتى - عموماً - والتى بدأت من مايو ١٩٥٨ وانتهت بزيارته فى يوليو ١٩٧٠، تتحول إلى ساحات مناقشة للمطالب المصرية من كل الزوايا، وكثيراً ما شهد مقر إقامة الرئيس المصرى - الذى كان الكرملين فى أول زيارة، ثم بيوت الضيافة على تلال لينين المطلّة على جامعة موسكو فى الزيارات الأخرى - خلية عمل تجهز الأوراق المصرية التى تطرح فى أول جلسة بعد ذلك فى قاعة الاجتماعات الكبيرة بالطابق الثانى فى الكرملين.

أما عن الاصطدام فربما كان منه ما أفصح عنه الرئيس عبد الناصر فى زيارته الأخيرة حين غضب من تباطؤ السوفييت فى الموافقة على إمداده بما سمى وقتها سلاح الردع حين قال: «إذا سارت الأمور على هذا النحو... سأستقيل... فليس عبد الناصر الذى يقبل التفاوض مع إسرائيل!!»

وبعدها أمدت موسكو مصر بأربع طائرات (ميج ٢٥) تعمل عليها أطقم سوفيتية، وكذلك محطات التشويش الإليكترونية على الرادارات الإسرائيلية.

وفى هذه الزيارة أيضا أبلغ عبد الناصر موسكو بأنه سيوافق على مبادرة روجرز ولم تكن هذه وسيلة للضغط على السوفييات تعبيراً عن الصدام، كما يحاول البعض أن يصورها، ولكنها كانت عملاً تكتيكياً ذكياً يمكن مصر من تحريك حائط دفاعاتها الجوية إلى شاطئ القناة، واستكمال تدريب الأطقم المصرية لتحل محل الأطقم السوفيتية العاملة عليها.

أما أخطر زيارات عبد الناصر إلى موسكو فكانت الزيارة السرية التى قام بها فى يناير من عام ١٩٧٠، وفيها قبل السوفييت أن يوجدوا بأنفسهم كخبراء مع أسلحة الدفاع الجوى التى منحوها لمصر.

ولقد تابعت - بنفى - بعد هذه الزيارة حجم الجهد الدبلوماسى الذى اضطرت موسكو إليه مع أميركا والغرب لشرح موضوع ذهاب الخبراء إلى مصر.

د. عمرو عبد السميع: هل حدث تأخير فى الجداول الزمنية لاستلام مصر للسلاح السوفيتى؟

د. مراد غالب: كانت متابعتى لهذا الأمر بناء على تكليفات شخصية من الرئيس عبد الناصر، ولم أشعر أن هناك تأخيراً فى شىء.

د. عمرو عبد السميع: هل شعرت - فى وقت من الأوقات - أن عبد الناصر كان متعجلاً أكثر من اللازم؟

د. مراد غالب: فى مراحل كثيرة كان متعجلاً، ويريد أن يسرع بالعملية

العسكرية، على حين كانت القيادة السوفييتية مترددة، وخائفة من الاندفاع في هذا الاتجاه، بما يحجب إمكان التسوية السياسية.

د. عمرو عبد السميع: هل تمايزت النظرة إلى العلاقات مع مصر داخل عناصر القيادة السوفييتية نفسها؟

د. مراد غالب: القيادة السوفييتية - كلها - كانت تنظر إلى العلاقة مع مصر باعتبارها واحدة من الأسس الاستراتيجية للسياسة السوفيتية، ولكن الرؤى كانت تتمايز بحسب موقع كل فرد داخل القيادة السوفيتية، فكاسيجن - مثلاً - رجل تكنوقراطى مؤمن للغاية بأهمية العلاقات الأميركية - السوفيتية، أما بريجنيف فهو الذى كنت الجأ له فى أى طلب عسكرى لتلافى تأثيرات السياسيين مثل جروميكو، وحتى حين كنت أقصد المارشال جريتشكو بطلب جديد كان ينصحنى بالحصول على موافقة بريجنيف مباشرة!

د. عمرو عبد السميع: كيف كان تصرفك إزاء الاحتكاكات التى تولدت داخل الجيش المصرى مع الخبراء السوفيت؟

د. مراد غالب: كان لدى السوفييت - فى البداية - تقدير متواضع لقدرات العسكرية المصرية وولد هذا قدرا كبيرا من الاحتكاك مع الضباط والقادة المصريين، وكان السوفييت فى هذا - متأثرين إلى حد كبير بحملة المساجلات الضخمة التى تعرض لها المجتمع الروسى بعد الهزيمة العربية وكذلك حملة المنظمات اليهودية على العسكرية المصرية.

وقد تدخلت لدى الجانبين (المصرى والسوفيتى) لوقف هذا الاحتكاك وكان لدى جريتشكو حرص كبير عليه إلى أن تم احتواء الموقف وبدأ السوفييت يدركون - مع الوقت - حقيقة القدرة العسكرية للمقاتل المصرى.

.....

و«عبر شرفة منزله الزجاجية المطلة على ملاعب الغولف بنادى الجزيرة الرياضى المصرى بحى الزمالك (حى الارستقراطية المصرية) سرح الدكتور مراد غالب طويلاً قبل أن يصب لنا الشاي فى طاقم من البورسلين الإنجليزى الأبيض

المنقوش بورود صغيرة وردية وخضراء. بينما غطت الأريكة التي نجلس عليها مفارش شعبية روسية بألوان حمراء وبيضاء وسوداء، وعلت الحائط خلفنا ثلاث أيقونات أرثوذكسية روسية، وبدا الرجل وكأنه يتذكر أمراً مؤلماً، فقد كان على وشك أن يبدأ معنا مرحلة جديدة من حوار الطويل عن علاقته بالسادات وعلاقة السادات بالسوفييت.

همس الدكتور مراد: «بعد أن أصبحت وزيراً للخارجية عام ١٩٧١ استدعاني ذات مرة إلى منزله، ففوجئت بوجود السفير السوفيتي سيرجي فينوجرادوف، وإذا بالرئيس السادات يقول للسفير: لقد عينت رجلكم وزيراً للخارجية، وفزعت من هول الموقف، لكنني انتظرت حتى انصرف السفير وقلت للرئيس: لا ينبغي - بروتوكولياً - أن يستدعى وزير الخارجية ليحضر اجتماعاً مع سفير، ثم كيف يمكن فهم حكاية (رجلكم) هذه، فهذا أمر لا يحترمونه ثم إنه يغضبني... فضحك السادات قائلاً: «إنكم معتادون على طريقة عبد الناصر، ولكن كل شيخ وله طريقة!!».

ويضيف مراد غالب: «ربما كانت هذه الحكاية مثلاً على استخدام السادات لتكتيكات صغيرة وكثيرة، لم يكن يعلم بحقيقتها سواء في إدارته للعلاقة مع السوفييت، بل ومع معاونيه أيضاً».

د. عمرو عبد السميع: كيف كان موقف الاتحاد السوفيتي من فكرة عقد معاهدة التعاون والصداقة مع مصر في يوليو ١٩٧١؟

د. مراد غالب: بعد أن قام السادات بحركة ١٥ مايو عام ١٩٧١ كان قلق كبير يعتري موسكو، وكانت فكرة عقد المعاهدة مع مصر هي امتحان القيادة الجديدة، فيما إذا كانت على استعداد للمضي في علاقة التحالف مع روسيا.

والكلام عن مجموعة على صبرى بوصفها مجموعة رجال موسكو في مصر، هو كلام سخيف رددته بعض الدوائر في القاهرة، إلا أن الاتحاد السوفيتي لم يكن ينظر اليهم بهذه الصيغة، وإنما - فقط - كانوا رجال الحكم في مصر الذين

يُعرفون باتجاهاتهم.

د. عمرو عبد السميع: أكانت موسكو مهمة فى ذلك الأوان بتصنيف رجال الحكم فى مصر؟

د. مراد غالب: طبعى... هذا ليس شيئاً قاصراً على الاتحاد السوفيتى، فهكذا الإنجليز، وهكذا الفرنسيين والأميركان.

د. عمرو عبد السميع: ألم تر موسكو أن رجال الحكم الذين تحبهم متحمين للعلاقات المصرية - السوفيتية من مجموعة على صبرى ليس لهم أية أرضية جماهيرية فى مصر؟

د. مراد غالب: موضوع الشعبية أو الجماهيرية ينبغى النظر إليه بطريقة أخرى، فالمستول وهو فى الحكم له شعبيته الضخمة أما وهو خارج الحكم فالموضوع يختلف، وانظر إلى السادات نفسه لقد حقق شعبيته وهو فى الحكم ولكن لدى طبقات وشرائح معينة.. وهكذا.

د. عمرو عبد السميع: كيف كان رد فعل السادات لطلب موسكو عقد المعاهدة؟

د. مراد غالب: حين جلس الرئيس نيكولاى بادرورنى - وجهاً لوجه - أمام السادات على مائدة المحادثات فى القاهرة فى يوليو ١٩٧١، كانت أولى كلماته هى أنه يحمل طلب اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية بعقد معاهدة تعاون وصداقة مع مصر، وبُهِت السادات وإن كان واصل استماعه لبادرورنى وهو يهز رأسه، وأحس بأن السوفيت غير مطمئنين إليه بعد حركة مايو ١٩٧١ التى أقصى فيها على صبرى ورجاله.

وفى مداولات الوفد المصرى عقب جلسة المحادثات الأولى، بدا السادات غاضباً جداً من الطلب السوفيتى، ونظر لى طالباً التعليق، فقلت له: «يا ريس هذا امتحان.. ولا بد أن ننظر إليه على هذا الأساس، لأن هذه المعاهدة بين قوة عظمى ودولة صغيرة هى عمل غير متكافئ»، إلا أنه يعكس عدم اطمئنان موسكو»، ووافق السادات.

وبالطبع حدثت ردة فعل سلبية فى مصر لعقد هذه المعاهدة، حتى أننى اضطررت إلى إلقاء محاضرة فى المخابرات العامة المصرية بدعوة من المشير أحمد إسماعيل الذى كان مشرفاً على الجهاز وقتها، أمام مجموعة من السفراء المصريين فى محاولة للتفسير.

وفى محاضرتى قلت: «إذا شققتم قلبى فأنا ضد هذه المعاهدة تماماً، ولكن ماذا نفعل؟ ليس لدينا مخرج آخر، وليس لدينا مصدر آخر للتسلح، وليس لدينا وسيلة أخرى لإدارة صراعنا مع إسرائيل سياسياً وعسكرياً».

د. عمرو عبد السميع: ولكن على الرغم من عقد هذه المعاهدة غير المتكافئة بناء على طلب الاتحاد السوفيتى، فقد ظلت العلاقة بين موسكو والسادات تسودها شكوك كبيرة.. لماذا؟

د. مراد غالب: الشكوك كانت أكبر جداً من جانب السادات، وفى جلسات محادثات مع السوفيت كان يتحدث إليهم بمنتهى العصبية والعنف، حتى أن أحد معاونى بريجنيف قال لى: «نحن غير معتادين على ذلك، لقد كنا نجلس إلى عبد الناصر ونتحاور حوار الند للند، بكلام واضح وبروح الجتلمان.. ولكن يبدو أن المسألة اختلفت الآن»؟

د. عمرو عبد السميع: ألم تكن هناك ضرورة لانفعال السادات وغضبه على السوفيت؟

د. مراد غالب: إطلاقاً، لقد بدا كمن يريد أن يفتعل خلافاً.

د. عمرو عبد السميع: لكن الرئيس السادات كان جزءاً من القيادة الحاكمة أيام عبد الناصر وحضر معه جلسات محادثات كثيرة مع السوفيت، فهل كان أداؤه وقتها بنفس العصبية التى تتكلم عنها؟

د. مراد غالب: أبداً، لقد كان لطيفاً للغاية، حتى أن عبد الناصر عينه مسئولاً عن الاتصال مع الجانب السوفيتى فى مصر، بوصفه من أكثر رجاله حماساً للعلاقات المصرية - السوفيتية، ومن أكثر رجاله لطفاً مع الجانب السوفيتى.

وعندما كان السادات رئيساً لمجلس الأمة (برلمان الوحدة أيام عبد الناصر) قام بزيارة لموسكو، وهناك بادره نيكيتا خروشوف رئيس الوزراء وزعيم الحزب الشيوعي بمحاضرة طويلة عن أكذوبة الوحدة العربية وأكذوبة القومية، من زاوية نظرية أيديولوجية ماركسية، واستمع السادات لهذا الكلام دون أن ينبس ببنت شفه، ثم بعد أن عاد إلى القاهرة، أُبلغ في المطار أن الرئيس عبد الناصر يود أن يراه فوراً، وبمجرد أن دخل أنور السادات على عبد الناصر، فوجيء بأنه يعلم كل شيء عما قاله خروشوف له، وعنفه تعنيفاً شديداً لأنه لم يرد، موضحاً أن الكياسة لا تكون في مثل هذه الأمور!!

وبعد هذا اللقاء العاصف شكاً لى السادات قائلاً: «وماذا كنت أفعل.. لقد كان فى جيبى طلبات تحليح، ولو أحدثت توتراً ربما ما كنت حصلت على موافقة».

فأجبت: «كان من الممكن أن ترد بحزم دون إثارة أزمة، فالرئيس عبد الناصر نفسه - عند اللزوم - كان يدخل معهم معارك عنيفة».

د. عمرو عبد السميع: منذ عقد المعاهدة فى يوليو ١٩٧١، وحتى طرد الخبراء السوفييت فى يوليو ١٩٧٢ ما هى النقاط التى مثلت الخط البيانى الصاعد فى تأزم العلاقات المصرية - السوفيتية؟

د. مراد غالب: السبب المعلن أو المحطة النهائية، كان تلكؤ السوفييت فى الوفاء بطلبات تسليح مصرية.

ولكن ما أدى إلى هذا - من وجهة نظرى - كان سلسلة طويلة من الأحداث، بدأت بمساندة مصر للرئيس السودانى جعفر النميرى فى مواجهة انقلاب هاشم العطا الذى قام به الشيوعيون بحيث بدأنا نُؤخذ فى نظر السوفييت بصورة النظام الذى يحارب الشيوعية فى المنطقة. وليس فى مصر، وأذكر بعدها أننى التقيت مع الرئيس أنور السادات قبل طرد الخبراء بفترة وجيزة وبادرتة قائلاً: «يا ريس لن أتحدث فى موضوع موسكو، ولكننى سأحدث فى موضوع مصر، فمعظم الأجهزة المصرية الآن يسيطر عليها رجال ليسوا متحمسين

للعلاقات المصرية - السوفييتية، وعلى العكس فهم يجاهرون بضرورة تجميد هذه العلاقات ووقفها، فكيف يكون هذا هو وضعنا ثم نطلب مزيداً من الأسلحة، وحين يتلكأ السوفييت نبدأ فى الهجوم عليهم».

وهنا رد السادات بانفعال واضح: «يا مراد أنت لا تعرف، لقد أصبح الأمن القومى المصرى فى خطر، الروس كانوا مع الأولاد الذين وضعتهم فى السجن (يقصد مجموعة على صبرى)».

وشعرت ألا فائدة، فالسادات ما زال يشك فى وقوف السوفييت خلف خصومه السياسيين، وذلك على الرغم من أنه الذى كسب المعركة، ووضع الأولاد - على حد تعبيره - فى السجن.

وللتدليل على صحة وجهة نظرى، فقد استقبل الرئيس اليوغوسلافي الراحل جوزيب بروز تيتو وفداً رئاسياً مصرياً بقيادة السادات فى مطلع عام ١٩٧٥ فى بيوجراد، وبادر السادات قائلاً: «لا بد أن تحسن علاقاتك مع السوفييت، أنظر.. لقد أنشأوا فى يوغوسلافيا تنظيماً شيوعياً يعمل ضدى، ووصل الأمر إلى تشكيل لجنة مركزية، يعنى يريدون قلب نظام الحكم، ومع ذلك ظلت علاقتى بهم قائمة، لا بد أن تكون لك علاقات مع الولايات المتحدة الأميركية، ولا بد أن تحسن علاقاتك مع موسكو».

واستخدم الرئيس تيتو تعبير TWO RODS أو القضيبين اللذين يستخدمهما الحداد فى الإمساك بشيء ساخن لوصف ضرورة العلاقة المتوازنة مع القوتين الأعظم.

د. عمرو عبد السميع: وكيف استقبل السوفييت قرار السادات بطرد الخبراء من مصر؟

د. مراد غالب: هذه كانت - بالنسبة لهم - كارثة، وأذكر أن الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء المصرى قام بعدها مباشرة بزيارة موسكو، وحضرت معه جلسة المحادثات مع ليونيد بريجنف، الذى استقبلنا والدموع فى عينيه وقال:

«ماذا فعلنا بكم.. حتى تسببوا لنا فى كل هذا، نحن حاربنا معكم، وامتزجت دماء جنودنا بدماء جنودكم، لقد كنا نخفى موتانا عن أعين الشعب السوفيتى، ونستقبل جثث جنودنا ليلاً حتى لا يدرى أحد، وحتى نستطيع أن نواصل دورنا تجاهكم.. نحن بنينا لكم السد العالى.. نحن ساعدناكم فى أن تصبحوا دولة صناعية».

كان بريجنيف فى أشد حالات الألم.. وبعد أن انتهى من كلمته ران على قاعة المحادثات سكون تام.

د. عمرو عبد السميع: كيف واجه عزيز صدقى الموقف؟

د. مراد غالب: كان الدكتور عزيز رجلاً «متفهماً» جداً لطبيعة العلاقات المصرية - السوفيتية فقد كان وزيراً للصناعة لسنوات طويلة، ويعلم حجم المساعدة الروسية لمصر، وقد قال كلاماً معناه: إنه جاء لى يعطى دفعة جديدة تؤدى لاستمرار العلاقات واستمرار التعاون مع موسكو.

د. عمرو عبد السميع: هل كان كلام عزيز صدقى بمبادرة شخصية منه؟

د. مراد غالب: بالطبع لا.. فعلى الرغم من أن السادات قام بإجراء طرد الخبراء إلا أنه كان حريصاً على استمرار العلاقة الطيبة مع السوفيت لأنهم ما زالوا - حتى هذا الوقت - مصدر مساندة مصر الوحيد.

د. عمرو عبد السميع: وصولاً إلى حرب ١٩٧٣ كيف استمرت العلاقة مع السوفيت بعد طرد الخبراء؟

د. مراد غالب: قام السادات بتعيينى وزيراً للخارجية من أواخر سبتمبر ١٩٧١ إلى سبتمبر ١٩٧٢، أى أنه أخرجنى من الوزارة بعد طرد الخبراء بشهرين تقريباً، وبعدها بدأ يتحرك مع الأميركيان، وأرسل حافظ إسماعيل مستشاره لشئون الأمن القومى ليلتقى مع هنرى كيسنجر فى زيارة سرية إلى باريس، ولأن حافظ إسماعيل رجل نظيف ووطنى وأمين فلم تسر الأمور مع كيسنجر وقتها وفق ما يريد، وهنا أعادنى السادات مرة أخرى إلى مقعد وزير الخارجية وقام

بتعيين بعض الوزراء من اليساريين المصريين البارزين (للدرة الأولى منذ الثورة) مثل الدكتور فؤاد مرسى والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله، وذلك لطمأنة السوفييت ومحاولة إعادة المياه إلى مجاريها!!

الموضوع بالنسبة إلى السادات كان تكتيكات صغيرة وللکثیر منها طابع شخصى ومزاجى .

د. عمرو عبد السميع: كيف عينك السادات وزيرا للخارجية أصلاً؟

د. مراد غالب: رشحنى له مجموعة من المستشارين حوله، فأبدى حماساً شديداً وفورياً، وعندما اتصل بى لإبلاغى، شعرت أن هذه نهاية العلاقات المصرية - السوفيتية .

د. عمرو عبد السميع: لماذا شعرت بذلك، رغم أن تعيينك وزيرا - وأنت واحد من مهندسى العلاقات المصرية السوفيتية - يعتبر تدعيماً لهذه العلاقات وليس إنهاءً لها؟

د. مراد غالب: شعرت بأن السادات لم يكن يريد تعيينى وزيراً، بقدر ما كان يريد إبعادى عن موسكو، ولذلك خرجت من روسيا بأسرع ما يمكن، وبعد سنوات التقيت مع بعض المسئولين الأميركان من ضمنهم أحد السفراء الأميركيين فى مصر فسألونى: «لقد رصدنا خروجك السريع جداً من موسكو... فكيف أحست بهذه الفورية أن العلاقات على وشك الانتهاء؟!». .

وأجبت: «اسألوا الرئيس السادات»، فقد كان واضحاً لى تماماً أنه منذ جاء للحكم يتحرك تحركاً مقصوداً لضرب العلاقة مع السوفييت والاتجاه للأميركان .

د. عمرو عبد السميع: فى هذا التوقيت - أيضاً - دخل الرئيس السادات فى مجموعة من المواجهات الداخلية، واحدة منها كانت غير مفهومة لى لأنها كانت ضد الخط الذى يتبناه فى العلاقة مع الاتحاد السوفيتى، وهى المواجهة مع الفريق أول محمد صادق وزير الحربية السابق الذى كان ضد العلاقات المصرية - السوفيتية أيضاً، فلماذا اصطدم به وهو يمثل نفس الخط؟!

د. مراد غالب: عندما قرر السادات طرد الخبراء، زارنى الفريق أول محمد صادق وزير الحربية، وهو صديقى وبلدياتى من محافظة الشرقية وقال لى: «الدور عليه»!!

محمد صادق كان يلعب دائماً بكارت أن الوجود السوفيتى هو إقلال من شأن العسكرية المصرية، ولا بد من إنهائه، فلما قام أنور السادات بطرد الخبراء، كان هذا بمثابة سحب للسجادة من تحت قدمى محمد صادق الذى كانت القوات المسلحة تلتف حوله، وهو أمر لم يكن السادات يريد به بعدما تخلص من الوجود السوفيتى.

د. عمرو عبد السميع: هل أثر كل هذا على استمرار الدعم العسكرى السوفيتى لمصر وصولاً إلى معركة ١٩٧٣؟

د. مراد غالب: كان السوفييت - على الرغم من كل شىء - حريصين للغاية على استمرار العلاقة حماية لمصالحهم الاستراتيجية، وكانوا قبل طرد الخبراء بثلاثة أشهر أى فى أبريل وافقوا على مطلب السادات بمنح مصر سلاحاً للدفع - وهو هاجس مزمن - طرحته القيادة العسكرية فى مصر من أيام عبد الناصر، وعلى الرغم من أن بريجنيف قال للسادات أثناء زيارته إلى موسكو فى أبريل: «إن الاتحاد السوفيتى لا يود تصعيد سباق التسلح لأن ذلك سيزيد من احتمالات المواجهة مع الأميركيين، وعلى الرغم من هذا فنحن نفكر فى إعطائكم صاروخاً (أرض - أرض) سيمثل سلاحاً رادعاً تماماً تستطيعون الاعتماد عليه».

كان هذا هو الصاروخ الذى عرف أثناء حرب الخليج باسم «سكود» واسمه الروسى (أولجا).

ولكن بريجنيف شرح للسادات أن الإشكال فى هذا الصاروخ أنه محمل برأس نووية، ويحتاج إلى وقت لتغيير رأسه برأس تقليدية بوزن مخالف، وبالتالي يجرى الفنيون الروس تجارب عليه لتغيير (الإيروايناميك) الخاص به.

ومن هنا كان ذهولى حين قرر السادات طرد الخبراء، لأننى تصورت أن هذا

سيمع السوفيت من منح مصر سلاح الردع. وبخاصة أنه كان يصرح لمعاونه في هذه المرحلة بأنه «سيمح السوفيت مسحاً من المنطقة»!!

إلا أن السوفيت - برغم كل شيء - منحوا مصر سلاح الردع واستمروا في أداء دورهم حفاظاً على مصالحهم الاستراتيجية وما أسموه - وقتها - دورهم التاريخي.

د. عمرو عبد السميع: دعنا نرى أداء الرئيس السادات في إدارته للعلاقة مع السوفيت بطريقة أخرى، ألم يكن ضغطه عليهم بطرد الخبراء، ثم بتهديده أن يمسحهم مسحاً من المنطقة وسيلة ناجحة لدفعهم للإسراع بتزويده بما يريد من سلاح حفاظاً على مصالحهم الاستراتيجية؟

د. مراد غالب: نعم.. ربما كان يقصد هذا، فقد كان يعتمد ترديد تهديداته للسوفيت أمام رجال مصريين أو عرب يعرف أنهم سينقلون هذا الكلام للقيادة السوفيتية.

د. عمرو عبد السميع: وماذا كان انطباع السوفيت إزاء الأداء المجيد للقوات المسلحة المصرية في حرب ١٩٧٣؟

د. مراد غالب: كانوا في قمة السعادة، وبدوا وكأنهم - أخيراً - ردوا الاعتبار للعسكرية السوفيتية والسلاح السوفيتي.

لو تأملت ملامح أليكسي كاسيجن في زيارته لمصر في ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ ستشعر فوراً أن الرجل بالغ السعادة.

أكثر من هذا قام كوليكوف رئيس أركان حرب الجيش السوفيتي والذي كان يصحب كاسيجن بتليم السادات الصور التي التقطتها الأقمار الاصطناعية السوفيتية للتحرك الإسرائيلي لإحداث الثغرة، وطرح عليه فكرة ضرب مطار العريش الذي كانت تصل إليه الإمدادات الأميركية وتتحرك مباشرة تجاه نقطة المفصل بين الجيشين المصريين الثاني والثالث لإحداث الثغرة، ولكن السادات

رفض الفكرة، فاقترح عليه كوليكوف توجيه قصف مدفعى مصرى مركز إلى منطقة تحرك الإسرائيليين.

إلا أن السادات قرر استخدام سلاح الردع (صواريخ أوجا) بعدما بدأت الثغرة بالفعل.

ثم سارت الأحداث فى الطريق الذى رسمه السادات وبدا تماماً أن الدور السوفييتى انتهى فى المنطقة بعد اجتماع جنيف الذى حضره ممثلو الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى ديسمبر ١٩٧٣ لتنفيذ القرار ٣٣٨. . وظهر أن السادات يريد الحل أميركياً فقط.